السياق ومقاصد الخطاب

أ. موهوب أحمد
جامعة محمد الصديق بن يحي، ولاية جيجل.

الملخّص باللغة العربية:

السياق من أهم عناصر الخطاب اللغوية، تناوله من جهة علماء البلاغة والأصول، تحت مسمّيات دلالية متنوعة كالمقام، ومراعاة المخاطب لمقتضى الحال، ولكل مقام مقال، فالمقام طبقات يختلف المقال فيها حسب اختلاف تلك المقامات وما على المتكلّم إلاّ مراعاتها، وإحراز المنفعة، فلا معنى للكلام بدون غاية وهدف ومنفعة ومن جهة أخرى تناوله المحدثين بصورة أوسع، باعتباره الإطار العام للقول الذي يشمل زمان ومكان القول والعلاقة بين المرسل والمرسل إليه وكل ما يحيط بهما، فمن خلال هذه الثقافات والمرجعيات والمعتقدات، أو زمان ومكان القول، يمكن الوصول إلى الفهم الحقيقي لمقاصد الخطاب، مهما كان نوع الخطاب، أدبي أو سياسي أوديني.

الكلمات المفاتيح: السياق، الخطاب، البرغماتية، التواصل، المقاصد.

Résumé :

Le contexte est considéré comme l'un des éléments les plus importants primordiaux de discours linguistique, ce lui la a été étudié par es spécialistes de la rhétorique, ces derniers estiment affirment prennent le postulat suivant : un orateur doit prendre en considération La situation auxquelles il prononce son discours. Car le parler varié selon la diversité des situations pour susciter l'intérêt de discours cependant les modernes abordent le sujet vaguement.

Les Mots Clés : Contexte, Discours, Pragmatique, Communication.

مقدّمة:

الخطاب أو النص منتوج لغوي فكري وثقافي، تشاركه وتتفاعل معه أطراف تواصلية أساسية، في إطار زماني ومكاني، وفق خلفيات ومرجعيات مختلفة، تحاط به جملة من العوامل والمؤثرات الداخلية والخارجية تساهم في التأثير على دلالة الخطاب ومعناه، كاللغة وظروف المتخاطبين وحالتهم الشخصية والنفسية والاجتماعية والثقافية، ممّا يجعله يستوجب لنجاحه توفّر مرسل ومستقبل، وأيضا إلى لغة مشتركة بينها، ومقام أو سياق يحدّده فالمقام مقامات والسياق سياقات والخطاب ألوان، فما على المرسل إلاّ اختيار الكلمات المناسبة في مقام وسياق يليق بها، لأنّ الكلمات تحمل معنى خارج السياق، كما تحمل من جهة أخرى معاني في سياقات مختلفة، والسياق بدوره منه ما هو لغوي داخلي يتعلّق بالعلاقات الصوتية والصرفية والنحوية، ومنه ما هو خارجي ثقافي واجتماعي وعاطفي.

فالعملية التواصلية تدور في بيئة لغوية وغير لغوية، داخلية وخارجية، هي التي تحدّد نوع الخطاب المستعمل من طرف المرسل، من خلال مراعاة مقتضى الحال، وجعل لكل مقام مقال، وهو المفهوم الذي اهتمت به كثيرا البلاغة العربية قديما، ومهّدت به الطريق إلى الدراسات اللغوية والبلاغية الحديثة (التداولية)، بحيث أصبح السياق من أهم عناصر الخطاب وبدونه يصعب الوصول إلى المعنى الحقيقي للخطاب وفق ما يراه التيار التداولي الحديث.

يحتل المقام أو السياق دورا مهما في الأقوال والأفعال التي لا يستقيم فهم مقاصد الخطاب إلاّ به ولا تتحدّد معاني الكلمات والخطابات بدون تكييف مع المقام، والخطاب مقيّد دائما بالسياق لأنّه يساعد في فك مضمونه بحيث صار من اللازم لعمليات التفسير والتأويل من ضبط السياق كلاميا ومقاميا، وذلك بتحديد ملابساته وأطرافه ومفرداته من السوابق واللواحق تكون في جملتها خادمة للمعنى والإفادة والمقاصد، وبدون السياق تبقى الوحدة اللغوية تحت معاني واحتمالات كثيرة إذا لم تكن مربوطة بقرينة أو أثر دال، والسياق في حاجة إليه كل مفسّر ولغوي في إجراءاته وتطبيقاته نظرا لدور عناصر السياق في إضاءة مضامين الخطاب ور فع غموضه.

يعدّ المتكلّم أو المخاطب من أهم عناصر السياق، باعتبار أنّ لكل واحد وهيئته أو طريقته في الكلام بالنظر إلى الخطاب والمكان والزمان والظروف المحيطة به المعلنة والخفية، "لأنّ لكل من المتكلّم والمتلقي اعتقادات وأعراف مشتركة، تجعل الخطاب ينبع من خلال هذا الاعتقاد والمرجعية المعرفية التي يتم التواصل بها، وهذا الإطار الثقافي يمثل للمتخاطبين مرجعية التفاهم والتواصل"[1] والسياق اللغوي والثقافي هو المعين على فهم عبارات مرتبطة بالحياة الاجتماعية وبثقافة المجتمع الدينية والسياسية ... فالمتكلّم قد يتكلّم بطريقة مباشرة أو

تاريخ التحكيم 15 ماي 2017

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

غير مباشرة، ممّا يجعل الخطاب في هذه الحالة يختلف، بحيث نجد الطريقة الأولى تساهم فيه العوامل الخارجية والإشارات أو المؤشرات في زيادة مستوى فهم الخطاب، أمّا الحالة الثانية تظهر من خلال المفردات والبناء والزمان ... "فمشاهدة المتكلّم أثناء الكلام الفعلي تعين على فهم الحدث اللغوي بل التعرّف على كل صفات المتكلّم ذلك أنّ لكل متحدّث معجمه الخاص ومفرداته التي يتألف منها"[2] فالمخاطب ما هو إلاّ حالة نفسية تحكمه ضوابط وقواعد اجتماعية، يجسّدها حسب ما يمتلكه من رصيد لغوي ومعرفي، مع حسن اختيارها وتأليفها بالنظر إلى الموقع أو الحال المتواجد فيه، حتى يصل إلى مراعاة المقاصد لمقتضى الحال.

العنصر الآخر الذي لا يقل أهمية عن المتكلّم، يتمثّل في المتلقي الذي يوجه إليه الخطاب أو الرسالة من المخاطب وهو الذي يجدّد نوع الرسالة، فكلّما كان المخاطب مختلفا عن سابقه اختلف الخطاب، لأنّ الخطاب يختلف حسب اختلاف الموقف الذي يجمع المرسل بالمرسل إليه، "فالمخاطب عنصر من عناصر المقام، وهو اقتضاء الموقف وقد أولاه البلاغيون عناية كبيرة ... ممّا أسموه مراعاة حال المخاطب وهو المستمع الذي عناه العاني بما صدر عنه مقام ... "[3]، وقد كانت له عناية أكثر في العصر الحديث، بعد الانتقال من الاهتمام بالمبدع والنص إلى الاهتمام بالقارئ والمتلقي وظهور نظرية القراءة والتلقي.

ثالث عناصر السياق أو المهام هو الخطاب الموجّه للمخاطب، بحيث ينبغي أن يكون مناسبا وملائما للمقام الذي ورد فيه، "لأنّ الأنماط اللغوية تختلف باختلاف الموضوعات التي تدور حولها ويعبّر عنها الحديث ... فمجال الحديث يتصل بالآثار المترتبة على الدور الذي يؤديه المتكلّم"[4]، فموضوع الخطاب يعكس المقام أو الوضعية أو الحال الموجود فيها كل من المرسل والمرسل إليه سواء تعلّق الأمر بجانبه الشكلي أو المضموني، وهنا يكمن دور المرسل في حسن تعامله مع الموضوع والمقام، وكذا الظروف المحيطة به.

زاوية النظر إلى السياق ودوره في الوصول إلى المعنى ومقاصد الكلام تختلف من لغوي إلى آخر ومن مرحلة إلى أخرى، حسب الجهة التي تناولت الموضوع، ومدى تأثير وتطور الدراسات البلاغية واللغوية الحديثة، وظهور مدارس وأقطاب لسانية، تطرقت إلى السياق حسب توجّهها، فكيف هو المقام في نظر علماء البلاغة قديما؟ وكيف كانت ممهّدة للدراسات اللسانية الحديثة وخاصة منها السياقية أو التداولية؟

1- المقام لدى البلاغيين:

اهتم علماء البلاغة بالمقام أو مقتضى الحال اهتماما كبيرا، لما يحمله من إفادة في إيصال المعنى وتحقيق غاية التواصل البلاغي، فمعرفة المقام عندهم من شروط فهم العمل التواصلي، "فهو يقوم بجمع العملية التواصلية (المتكلم والسامع والرسالة) ويبث فيها روح التناسق الإيقاعي التواصلي، وهو الذي يضمن النجاح التداولي للخطاب، في مقابل النجاح النحوي الدلالي الذي هو مسؤولية البناء"[5]، بل إنّه لا يمكننا كما يقول (تمام حسان) "فهم المعنى الدلالي بمجرد النظر إلى معنى المقال دون اعتبار المقام، وهل يمكن بالمقابل فقط أن نفهم المقصود من عبارة: زيارة الأصدقاء تسعد النفس، إنّنا لا نعرف من هذه العبارة ما إذا كان الأصدقاء زائرين أم مزورين"[6].

"نجد مفهوم المقام عند البلاغيين تحت ما أسموه بـ (مراعاة المخاطب) وخاصة من حيث طبقته"[7] فنظروا إليه نظرة سكونية، نمطية، مجردة، ويتضح ذلك في قول أبوهلال العسكري: "وإذا كان موضوع الكلام على الافهام فالواجب أن تقسّم طبقات الكلام على الإفهام، فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس فيخاطب السوقي بكلام السوقة والبدوي بكلاك البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه فتذهب فائدة الكلام وتعد منفعة الخطاب"[8].

أدرك علماء اللغة والبلاغة العربية ظاهرة السياق من خلال عبارتهم (مقتضى الحال) التي أنتجت مقولتهم (لكل مقام مقال) وكل كلمة مع صاحبتها مقام، فانطلقوا في مباحثهم حول فكرة المقام كما ألحوا على قيمة دراسة كيفية عمل الكلمات دراسة مفصلة، فأصبح معيار الكلام في باب الحسن والقبول بحسب مناسبة الكلام لما يليق بمقتضى الحال والمقام، فنحن أمام مصطلحي (الحال والمقام) المرتبطين بالمقام الذي هو النص أو العبارة أو الخطاب يترددان في النصوص البلاغية، ثم انتقلا في حقلي النحو والنقد، فمن أقدم النصوص البلاغية التي ورد فيها هذان المصطلحان رسالة بشر: "والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضح بأن يكون من معاني العامة وإنّما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال"[9] بحيث لا يمكن تصور كلام يحمل معنى غير قادر على تحقيق المنفعة والصواب، إذا كان هذا الكلام غير موافق للحال ويكون مناسبا للمقام، وبالتالي فالمقام الواجب مراعاته هو السامع من حيث الطبقة التي ينتمي إليها، لأن المقام طبقات، وكل طبقة مقالها الخاص بها، وخطاب

تاريخ التحكيم 15 ماي 2017
المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يخاطب بها، يقول (الجاحظ): "ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[10]، ومن هنا يتضح لنا أنّ الجاحظ قابل بين الحال والمقام وطبيعة المقابلة تقتضي طرفين مختلفين فالحال غير المقام، ومن جهة أخرى ربط بين الطبقة والكلام عند معالجة فكرتي الحال والمقام، فالكلام يرتبط بطبقات السامع، أي مقامه الاجتماعي و"كلا الناس أنفسهم في طبقات"[11]، كما يرتبط بحاله وقت تلقيه الكلام، فلا بد أن يراعي المتكلّم هذا المقام الاجتماعي بالإضافة إلى مراعاة حال سامعه فيأتي بالمعنى في ما يليق بهما وإيراد ما يقبل عليه، وتجنيبه ما يكرهه وينكره، وما لا يحتمله قلبه ولا يسعه صدره، ولا يليق به قبوله، وهذا ما قصده الجاحظ بأقدار المعاني وأقدار المستمعين وأقدار الحالات وأقدار المقامات، يقول أبوهلال العسكري: "لا يكلّم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، لأنّ ذلك جهل بالمقامات، وما يصلح في كل واحد منها من الكلام، وأحسن الذي قال: لكل مقام مقال"[12]، فطبقة السامعين تحدد المعاني والألفاظ التي يستخدمها المتكلّم، "فيخاطب السوقي بكلام السوقة والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب"[13]، فعلماء البلاغة العربية جعلوا من مقام الملوك والسادة يختلف عن مقام البدو والسوقة والعامة والأعاجم، فمقام البدو يناسبه وحشي الكلام ومقام السوقة يناسبه الكلام السهل، فجعلوا هذا ميزان يوزن به الكلام البليغ، بحيث لا يخاطب الخاص بكلام العام ولا العام بكلام الخاص وكلما كان الخطاب موجه لغير مقامه أصبح في غير موقعه ومعناه.

ثم بعد ذلك تجاوز علماء البلاغة مرحلة الطبقية في الخطاب، إلى نوع الخطاب الموجّه إلى السامع والحال الذي يجمعهما، ففي إطار علم المعاني، يرى (السكاكي) أنّ للكلام مقامات، إذ يقول: "لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذّم ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ومقام الجدّ في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى الآخر"[14].

فالمخاطب قبل أن يخاطب السامع ينبغي أن يعمل بالحال الموجود فيه المقام، فلا يستطيع مثلا أن يخاطبه بكلام التهنئة وهو في مقام التعزية، فيكون الكلام في غير محله، فيجب مراعاة حال السامع أثناء الكلام، وكثيرا ما كانوا يستعملون لفظ الحال مردفا للفظ المقام، "والحال في اصطلاح أهل المعاني هو في الأمر الداعي لدى المتكلّم على وجه الخصوص، أي الداعي إلى أن يعبّر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المعنى خصوصيته، ما هي المسمّاة بمقتضى الحال مثلا كون المخاطب منكرا للحكم، حال يقتضي تأكيد الحكم والتأكيد مقتضاها"[15]، فنستطيع أن نطلق على الكلام أنه حسن إذا انطبق تركيبه على مقتضى الحال، وإذا كان غير منطبق كلامه مع مقتضى الحال فهو كلام قبيح فينبغي للمتكلّم أن يتصفح جيّدا مقتضى الحال أثناء توجيه خطابه في أحوال مختلفة ومتباينة، فحال المخاطب هو مقامه يقول (ابن جني) في باب أن المحذوف إذا دلت عليه الدلالة، كان في حكم الملفوظ به: "من ذلك أن ترى رجلا قد سدد سهما نحو الغرض، ثم أرسله، فتسمع صوتا فتقول: القرطاس والله، أي أصاب القرطاس، فـ(أصاب) الآن في حكم الملفوظ به البتة، وإن لم يوجد اللفظ، أي غير أنّ دلالة الحال عليه ناب مناب اللفظ"[16].

تجسّدت فكرة المقام عند علماء البلاغة العربية في علم المعاني، وفيه تجلّت قيمته أكثر لما لهذه الفكرة من دور هام في بروز المعنى وإيضاحه، إذا اعتبروه بأنّه: "تتبّع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتّصل بها من استحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"[17]، وقد تخصّص علم المعاني بدراسة أنواع الأساليب اللغوية ومقامات كل منها، كما أنه يعني بالأغراض الفرعية في مقابل الأغراض الأصلية للأساليب العربية (النداء والأمر والنهي والاستفهام) وهي أغراض لا تحدّدها إلاّ معرفة المقام التواصلي، والسياق الاجتماعي، ولكن لا ينبغي أن يتّسع مفهوم المقام عند بعضهم ليشمل مجموعة الاعتبارات والظروف التي تصاحب النشاط اللغوي، ويكون لها تأثيرها في ذلك النشاط من خارجه، بحيث لا تتحدّد دلالة الكلام أو تتجلى مزاياه إلاّ في ظلّ ارتباطه بها.

المقام وسيلة من وسائل إدراك العلوم كما يرى (أبو حامد الغزالي)، بحيث حصر مدارك العلم في العقليات المحضة والمحسوسات والمشاهدات الباطنية والتجريبات والمتواترات والقرائن المقامية[18] ويقول موضّحا ذلك بمثال أنّ "مجرد الإخبار يجوز أن تورث العلم وإن لم يكن فيه إخبار تشهد الصبي يرتضع مرة بعد مرة فيحصل لنا علم قطعي بوصول اللبن إلى جوفه، وإن لم نشاهد اللبن في الضرع، لأنّه

تاريخ التحكيم 15 ماي 2017
المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مستور ولا عند خروجه فإنه مستور بالفم ولكن حركة الصبي في الامتصاص وحركة حلقه تدل عليه دلالة ما، مع أنّ ذلك قد يحصل من غير وصول اللبن"[19] فيأخذ المقام معنى الحجة والبرهان ويصبح من وسائل الاقناع والامتاع، وقد قالوا قديما، ليس من رأى كمن سمع.

فالمقام الحي يؤدي دورا لا يقل أهمية، وهو توحيده للرؤى والاهتمامات وجمعه للثقافات والمشاعر وإعطاؤه فرصة للتأثر والتأثير وتقريبه الفجوة بين القائمين فيه، يقول (أبوهلال العسكري): "وإذا كان القوم في قبيلة واحدة، وفي أرض واحدة، فإنّ خواطرهم تقع متقاربة، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة"[20]، ويؤيّد ذلك أن المتلقين للخطاب الواحد، في المقام الواحد تكون فهومهم متقاربة على عكس وأن كل واحد منه سمعه في مقام مختلف، ولذلك لا نجد الخطاب في زمن انتاجه إلاّ معنى واحدا متداولا، ثم تبدأ التأويلات والتخريجات كلما انفصل عن المقام الأول وهذا ما يظهر في الخطاب القرآني والنصوص الأدبية الشعرية منها والنثرية.

2- المقام لدى المحدثين:

ساهمت جهود القدماء من علماء البلاغة والأصول بتوضيح الرؤى حول موضوع المقام أو السياق بالمفهوم الحديث، فكانت لهم الأسبقية في إبراز دوره للوصول إلى المعنى، يقول (تمام حسان): "إنّ البلاغيين عند اعترافهم بفكرة المقام يتقدمون ألف سنة تقريبا على زمانهم، لأنّ الاعتراف بفكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسيين ومن أسس تحليل المعنى، يعتبر الآن في الغرب في الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة"[21] لأنّ المقامات والأحوال تختلف والمقالات تختلف تسير وفقها، وما يطلب المقام الأول من الأسلوب والخطاب، يختلف عما يطلبه الثاني والثالث، وإذا قال البلاغيون (مقتضى الحال) فالمعنى هوما يطلبه أحد الأنماط النوعية للمواقف من رعاية في الكلام، وهكذا يمكن للمرء أن يفكّر في الأنواع، ففي المواقف لكل منها مطالب أسلوبية معينة، فينظر من جهتهم إلى المقام على أساس أنه كيان يجب مراعاته، دون الاهتمام بما هو خارج عن السياق اللغوي، من حالة نفسية واجتماعية وثقافية ودينية، ما ينبغي أن يكون فيه الكلام أو المقال، عدم منافاته للقواعد اللغوية بكل مستوياتها ومراعاة حال السامع، لأنّ هذا الأخير هو الذي يحدّد نوع المقام الذي سيوجّه إليه، وقد نبّه (محمد العمري) إلى أهمية فكرة مراعاة المقام والحال في البلاغة العربية بوصفها عنوانا للعلاقة بين الخطيب والمستمع، فالبلاغيون العرب إن لم يهتموا كثيرا بالدراسة النفسية والأخلاقية للمرسل أو المتلقي حاولوا لأن يدرجوا تحت عنوان المقام والحال ملاحظات كثيرة فيما ينبغي للخطيب أن يكون عليه أو يراعيه من أحوال المستمعين"[22]، فلا خطاب الجاهل في مقام المثقف، أو خطاب الشاب في مقام الكبير سنا وثقافة وتجربة، لأنّ في المقالات أساليب معبّرة ومقاصد هادفة وأغراضا محدّدة، وكلّما خرج المقال عن إطاره أصبح الأسلوب غير معبّر، والمقصد منه يتغيّر وأيضا الغرض ويمكن الانطلاق من فكرة أن المقال يتحدّد وفق المقام لأنّها فكرة تتّسم بالدقّة والشمول في ضوء نظرية الإبلاغ الأدبي، واللسانيات النفسانية والاجتماعية فكل من الاستفهام والإنكار والتوبيخ والتهنئة مقام مختلف، ويختلف عن المقامات الأخرى، وكلها تحتاج إلى مقال يليق بها، حتى لا يغيّر من المعنى شيء، لأنّ الخروج عن إطارها خروج عن المعنى كلما راعى المنتج مقامات الخطاب كان أقوى إلى الإقناع والإمتاع، وما المقامات إلاّ جملة الظروف الحافة بالنص، ولا تواصل ممكن إذا كان الخطاب مجرد تراكم لعبارات لغوية لا ينتظمها جامع مقامي، فبنية العبارات اللغوية تعكس إلى حدّ بعيد المضامين التي تحملها والأغراض التواصلية التي يحقّقها في طبقات مقامية معيّنة[23]، فمفهوم المقام اتّسع بسبب ارتباطه بمجالات مختلفة في الشرق والغرب مثل تحليل الخطاب والسيميائيات ونظرية أفعال الكلام وعلم النص وعلم التأويل والبلاغة والتداولية.

والملاحظ عند المحدثين أنّهم يستعملون لفظة السياق مرادفة للفظة المقام في أكثر الأحيان رغم أنّ بعضهم يجعل مصطلح السياق متعلّقا بالبناء اللغوي والمقام خاصا بالمؤثرات الواقعية خارج الخطاب، على أنّ كثير منه لا يميّزون بينهما، كما يستعملون عبارات أخرى للدلالة على المقام، مثل سياق الحال، الواقع المعيش، الإطار التبليغي ... كما ميّزوا بين السياق الاجتماعي والسياق المقامي فالأول هو مجموع الشروط الاجتماعية التي تسمح بدراسة العلاقات بين السلوكات الاجتماعية والسلوك اللغوي، أمّا السياق المقامي فهو يخص المعطيات التي يشترك فيها كل من المرسل والمرسل إليه حول المقام الثقافي والنفسي والخبرات والمعارف[24].

ولقد تعدّدت تعاريف المقام واختلفت باختلاف المنطلقات النظرية التي يتبناها كل دارس فيدخل في المقام عند (برنت روبن) اللغة المصاحبة، أو ما وراء اللغة، ومنه: التنهد والنغمة والدمدمة وسرعة الكلام والوقفات وكلها تساعد على فهم المحتوى (محتوى الرسالة) وإضافة إلى الشفرات غير اللفظية مثل الظهر والحركة واللمس والمكان والزمان[25].

تاريخ التحكيم 15 ماي 2017
المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يقول (فان دايك): "يتألف السياق البرغماتي من جميع العوامل النفسية والاجتماعية التي تحدّد منهجيا ملائمة الأفعال الكلامية، ومن هذه العوامل المعرفة التي يملكها مستعملوا اللغة، ورغباته أو إرادتهم والأشياء المفضلة لهم وآرائهم، وكذلك علاقاتهم الاجتماعية"[26]، فالمقام هو الإطار العام للقول الذي يشمل زمان القول ومكانه وهوية الباث والمتلقي وعلاقتهما ببعضهما البعض، وكل ما يعرفه أحدهما عن الآخر[27].

كما يعرفه (تمام حسان) بقوله: "فالذي أقصده بالمقام ليس إطارا ولا قالبا، وإنّما هو جملة الموقف المتحرّك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلّم جزءا منه، كما يعتبر السامع والكلام نفسه، وغير ذلك ممّا له اتصال بالمتكلّم"[28] وهو هنا يجعل من المقام العلاقة القائمة بين المتكلّم والسامع والكلام وما يحيط به من فضاء خارجي يساهم في فهم المقاصد وتحديد المعنى.

ونجد (كمال بشر) يسميه بـ (المسرح اللغوي) ويعني به الجو الخارجي الذي يحيط بالكلام من ظروف وملابسات، وتمثل عناصره الأساسية في شخصية كل من المتكلّم والسامع والعلاقة بينهما والمكان وما فيه من شخوص وأشياء[29]، فعناصر المقام تكون منحصرة بين أطراف التبليغ وترقبات المتكلّم والمستمع، وأدوارهم ويصبح المقام بذلك هو كل المؤثرات خارج النص، التي تشارك في انتاجه، كما تشارك في استقباله وفهمه، بمعنى أنّ المقام مساهمة المشاركين في الموضوع ومكان التفاعل ومعارفهم اللغوية والصفات اللغوية وغير اللغوية والمعايير الاجتماعية ومقاصد المتكلمين وشخصياتهم التواصلي فيه جوانب ثلاثة، مقام المتكلّم ومقام المتلقي ومقام مشترك بينهما، وهذه المحاور الثلاثة تعمل بشكل متداخل في اتجاه واحد.

كما أنّ المقام بالنسبة للنص أو الخطاب أو الرسالة، ثلاث مراحل، مقام قبل الخطاب، ومقام بعد الخطاب ومقام أثناء الخطاب، وكل مرحلة منها ضرورية للفهم الجيّد للنص، وكلما جهلت مرحلة إلاّ وكان ذلك على حساب فهم السامع وإدراكه، وهذا الأمر يتعلّق بالدرجة الأولى بالخطاب الشفوي المباشر بينما في الخطاب المكتوب والمنقول، فإننا نفقد أجزاء من المقام، سواء باعتبار الطرفين أوالرسالة، ولا يبقى منه إلاّ ما حاول السياق اللغوي إثباته، والذي يرقى إلى درجة المقام الحي، إذ هو عملية تعويضية لسدّ النقص الفاضح الذي يتركه فقد المقام التواصلي، ولذلك نجد في النصوص الأدبية خاصة رغبة خفية في إحياء المقام التواصلي عن طريق السياق اللغوي وهذا نجده أيضا في التواصل اليومي بين الناس، ويبقى المقام والسياق أول مبدأ من مبادئ انسجام النص الذي يشكّل من خلال تشابك فضاءات عديدة تؤدي دورا فعالا في تأويل النص، كالمتكلّم والسامع والزمان والمكان.[30]

والمقام هو تأشيرة المرور إلى الإمتاع والإقناع، ومن ثم الفعل والتغيير، فقد طبقه الغرب في مناهجهم اللغوية وتحليلاتهم الأدبية، فحصلوا على نتائج في هذا المجال، أحدثت ثورة في طرق التحليل الأدبي، ووضعت مقاييس جديدة لشرح الكلمات وفهمها وقدّمت وسائل فنية حديثة لتحديد معاني الكلمات فإضافة إلى ما قدّمه العرب قديما في هذا المجال، يمكن الاستفادة أيضا بالمناهج الغربية وتطبيقها في المناهج اللغوية والبلاغية والنحوية والأدبية والنقدية، حتى يوفّر معايير ومقاييس نستطيع الحكم بها على النتائج الحقيقية حكما صحيحا، من خلال ما هو عربي قديم وغربي حديث.

3- مقاصد الخطاب:

مقاصد الخطاب، من المقاصد الهامة في البحث اللغوي، لأنّ اللغة في نظامها التواصلي ما هي إلاّ تحقيق لأغراضها ومقاصدها التداولية، وما التجاوزات التي يحدثها المتكلّم إلاّ لقصد تداولي وعليه فإنّه لا يمكن خرق نظام اللغة إلاّ في الحدود المسموح بها، أي في حدود الجواز، وهوما يدخل في حرية الاختيار في استعمال الأساليب والتراكيب التي يريد الإفصاح عنها المتكلّم لتحديد مقاصده وأغراضه.

القصد والمقصدية من المفاهيم التي نجدها أيضا عند علماء النفس الظاهرتيين والتداوليين وفلاسفة اللغة وهو ليس إلاّ جزءا من اشكالية أعمّ تبحثها فلسفة الفكر، وكل ألوان النشاط العلمي هذه تسعى جاهزة لاستكشاف بواعث الكلام وآلياته النفسية والجسدية، فالمقصدية بما فيها من حالات التمني والرغبة وباعتبارها أفعالا ذهنية، تدفع إلى الاتصال بالآخر ليحصل التواصل الاعلامي والتفاعل.

لا حديث عن الكلام إلاّ مع وجود القصد، وعليه فالمتكلّم لا يتكلّم مع غيره إلاّ إذا كان لكلامه قصد وهذا القصد محدّد عند المتكلّم ثابت لا يتغيّر، بحيث يتخذ من الوسائل الكلامية والمقامية ما يعيق المخاطب على إدراك ما يريد، لذا يقول (طه عبد الرحمان): "اعلم أنّ دلالة العبارة هي استلزام القول للمعنى من سياقه"[31]، ويعني ذلك أنّ استعمال اللغة منوط بما تعارف عليه أبناؤها في ألفاظها وتراكيبها

تاريخ التحكيم 15 ماي 2017
المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ودلالاتها وما تقتضيه مقامات الكلام وأعراف الناس وأحكام الشرع، أي أنّ دلالة الكلام لا تتم بقصد المتكلّم وحده، وإنّما بتوافق القصد مع المواضعة أو الاصطلاح:

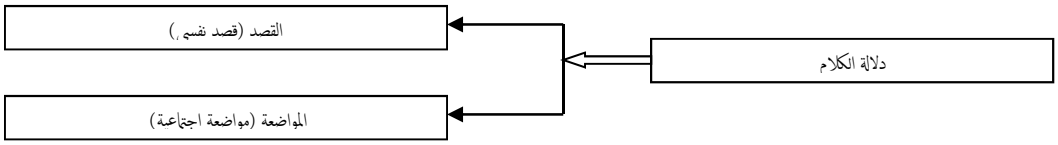

فالقصد والمواضعة من الأركان الأساسية التي تقوم عليها النظرية المقامية العربية عامة ونظرية أفعال الكلام خاصة، وليس بغريب أن يقيم (ابن خلدون) حدّ اللغة عليها بحيث يقول أنّ اللغة في المتعارف عبارة المتكلّم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني، فلا بدّ أن تصير ملكة مقرّرة في العضو الفاعل لها وهو اللّسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم وكانت الملكة الحاصلة للعرب ن ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد"[32]، حيث يعقد ابن خلدون العلاقة بين الوضع واستعمال اللغة للتعبير عن المقاصد مع توفّر مبدأ الإفادة في الكلام.

لا ريب أنّ كل فعل يقوم به الانسان لا يأتي إلاّ لتحقيق هدف معيّن، وعليه فلا يسمى الفعل فعلا، ما لم يصحبه القصد، والقصد يصحبه إرادة المتكلّم، فيؤثر القصد بمعنى إرادة فعل شيء في الحكم على الفعل نفسه، فتصبح الأفعال تابعة للمقاصد الباطنة لدى فاعلها، لا تابعة لشكلها الظاهري.[33]

إنّ اكتشاف مقاصد المتكلّم ضروري في تحصيل عملية التبليغ والتواصل، فالتلفظ دون قصد عبارة عن فعل تعبيري، إذ قد ينطق المتكلم أصواتا مركّبة من مفردات لغوية ذات معان معجمية وبنى صرفية ومنتظمة في تركيب نحوي صحيح، ومع أنّها ذات دلالة في ذاتها، فإنّها لا تنجز فعلا دون قصد المتكلّم.

المقاصد من جهة أخرى هي عبارة عن معان، وما الألفاظ إلاّ وسيلة لتحصيل المراد والمبتغى والمعنى هو المقصود من الكلام، فالاعتناء بالمعاني من المتكلّم هو اعتناء بالمقاصد في حدّ ذاته، غير أنّ المعنى فيه ما هو ظاهر من خلال الألفاظ، وفيه ما هو مضمر يظهر من خلال إدراك معنى الاستعمال اللغوي وسياقه، وبالتالي فالمعنى الثاني هو الذي يقصده المتكلّم من كلامه، القصد مبني على فهم المتلقي لمراد المتكلّم عند التداوليين، خلافا لمذهب علماء العربية الذين جعلوا القصد غاية المتكلّم[34]، وهذا انطلاقا من اعتبار اللغة وسيلة لتحقيق غرض معيّن، وجعل القصد في غاية المتكلّم ليس فيما يفهمه المتلقي، وفق عرف اجتماعي ومقتضيات الأحوال ووفق استعمال اللغة في سياق معيّن فاختلاف المقاصد يترتب عليه اختلاف الأساليب والسياقات، ممّا يستدعي هذا تناول مقاصد الاستعمال في سياق معيّن، يظهر من خلاله معنى سياق يغاير المعنى الظاهر، من هنا تتّضح أهمية معرفة مقاصد المتكلّم، عند عدم كفاية فهم الخطاب، بمعناه الحرفي فهناك عناصر أخرى تتدخّل في فهم هذه المقاصد، تتمثّل في السياق بمفهومه التواصلي.

4- السياق ومقاصد الخطاب القرآني:

القرآن الكريم نصّ ليس كباقي النصوص اللغوية الأخرى، ودراسة قضية من قضايا البلاغة العربية أو البلاغة الجديدة وإبراز دورها في فهم مقاصد القرآن الكريم، يقتضي البحث والتنقيب على كل نقطة لها علاقة مباشرة وغير مباشرة بالمقام قبل وأثناء وبعد نزول القرآن الكريم، لأنّ كتاب الله عزّ وجلّ نزل بلغة كانت يصنع بها الشعر والنثر والأمثال والحكم والخطب، تتميّز بالوضوح والسهولة والإتقان، كما أنّ القرآن الكريم عندما نزل بلغتهم واجه طائفة مقبلة عليه وطائفة رفضته وأنكرته، وبعد نزوله تعدّدت الآراء والمفاهيم والتفاسير والتأويل، ممّا نجد مقام ثقافي اجتماعي قبل النزول ومقام لغوي وخارجي أثناء النزول وتفسير وتأويل لآياته بعد النزول.

فيمكن النظر إلى المقام أو السياق ودوره في إبراز معناه من عدّة زوايا، الداخلية منها والخارجية فالداخلية من خلال دراسة تطور الدلالات للكلمات والعبارات القرآنية في سياقها الداخلي النصي، كما يمكن تفسير القرآن بالقرآن، وانسجام بنياته الداخلية من خلال تفسير آية بآية أخرى أو حدث مع آخر، وفق تتابع الآيات أوبين السور التي تبيّنها أحداث ووقائع تجعلها تخدم وتفسّر بعضها البعض، أو نص ينسخ نصا آخرا، "فالنص (القرآن) يمتاز عن بقية النصوص كونها نصوصا متداخلة في إطار السورة الواحدة، كما يقدّم نفسه بوصفه

تاريخ التحكيم 15 ماي 2017
المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نصا واحدا في إطار السور المتعدّدة، وإنّ المعنى ليتعدد في بنائه نموذجا بتعدّد النصوص المتداخلة في إطار السورة الواحدة، كما أنه على العكس من ذلك، يرتد إلى بؤرة دلالية واحدة في إطار السور المتعدّدة، هي بؤرة التوحيد"[35].

أمّا الخارجية فتتمثل في السياق اللغوي والثقافي والاجتماعي لعصر القرآن ونزوله، من خلال المرجعيات الثقافية والدينية والاجتماعية أو السياسية للعرب قبل الإسلام وأثناء مرحلة النزول التي استمرت أكثر من عشرين عاما في مكة والمدينة.

والقرآن الكريم نزل بمقاصد تتفاعل مع هذا السياق الخارجي، فهو عبارة عن وصل بينه وبين سياق الثقافة العربية بمكوناتها المتعدّدة، أي بين لحظة نزوله وما زامنها من مرجعيات ثقافية ولغوية، فنجده يتميّز بصلته مع عمق وجذور الثقافة العربية.

هذا القرآن الذي جاء كنص بديل لما كان سائدا عند العرب، جاء لقطع بعض الحقائق والعادات والتقاليد والمعتقدات التي كانت سائدة قبل الإسلام، ويكون مرجعا ثقافيا أصيلا مهيمنا على المرجعيات والأفكار الأخرى.

القرآن الكريم نزل بلغة العرب، ألفاظا ومعاني، بأساليب نحوية وبلاغية، ففهم القرآن الكريم وبلوغ مقاصده مشروط بالتمكّن من لسان العرب والسياق الحقيقي لفهم القرآن الكريم وتفسيره وتأويله، هو سياق عصر نزوله، يقول الشاطبي: "إذا قلنا إنّ القرآن نزل بلسان العرب، وإنه عربي لا عجمة فيه، فيجمعني أنه نزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها"[36] ويقول في موضع آخر: "لا بدّ في فهم الشريعة من إتباع معهود الأميين وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإنّ كان للعرب في لسانهم عرف مستر، فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة وإن لم ثم عرف فلا يصح أن يجري في فهمها على ما لا تعرفه، وهذا جار في المعاني والألفاظ "[37].

فلا يمكن أن تتوسّع دلالات القرآن الكريم خارج الدلالات الممكنة لمعهود العرب من لسانه زمن النزول، لأنّ اللغة البشرية تتغيّر وتتطور دلالتها ومعانيها بتغيّر الزمان والمكان، وهذا النوع من التفسير والتأويل لا نجدها إلاّ عند الأوائل من المفسّرين.

فرغم كون القرآن الكريم دائم التجدّد في معانيه ودلالته، وإن كانت هذه الدلالات غير ما عرف في عصر نزول القرآن الكريم، إلاّ أنّ السياق اللغوي العام يقع في دائرة تلك الفترة من لسان العرب ابتداء، أيّ لغة عرب عصر التخاطب الأول، وإذا كان تجاوز فيكون بما لا ينقصه، فأهمية السياق اللغوي لعصر النزول يكتسب أهمية كبرى متى كان مقصد الخطاب تكليفا موجها لمخاطب محدّد قصد أمره أو نهيه أو توبيخه وتحذيره ... إضافة إلى ذلك، فالقرآن الكريم نزل بلغة قريش وثقافتهم، ممّا أهّله ليكون على قدر التخاطب الإلهي، فأنزل القرآن فيهم وإليهم، بحيث خاطبها القرآن بشتى ألوان الخطاب تصعيدا وتهديدا ووعيدا وجدالا وبيانا ووعدا وتنديدا وفي فترة قبل الإسلام كانت العرب تتميّز بنوع من الثقافة والفكر والمعتقدات وخير دليل على ذلك لغتهم التي بلغت مبلغ الإتقان والاتسّاع والغنى، فأصبحت من أحسن اللغات الإنسانية، سواء في زمن نزول القرآن الكريم أم بعده، ممّا جعل السياق المعرفي للنص القرآني يأتي بسياق علوم العرب ومعارفهم زمن التنزيل فرغم كونه يتميّز بالإعجاز من كل الجوانب اللغوية والعلمية إلاّ أنّه يتميّز بالبساطة والسهولة، فهودين يسر لا دين عسر، وهذا واضح من خلال اللغة السهلة الموجهة لتلك الأمة الأمية، على حسب مقامهم وفئاتهم وأعمارهم، باعتباره دين لعامة الناس، حتى يتمكّن كل واحد منهم من فهم معانيه ومقاصده، بالنظر إلى الأفكار الجديدة التي جاء بها خصيصا لهذه الفئة من الناس، التي سارعت بدورها إلى فهم خبايا هذا الكتاب الجديد، لما يحمله من أبعاد انسانية وأخلاقية، ممّا جعله كتاب جميع المقامات والسياقات في مختلف الأوقات.

يمكن البحث عن السياق الخارجي عبر أسباب النزول القرآني في مكة والمدينة، في مكة نجد القرآن الكريم مر بمرحلة الدعوة السرية ثم الجهرية، خاطب من آمن من قريش وهم القلّة، ومن كفر منهم وهم الكثرة، أمّا في المدينة تميّزت الفترة بوجود مخاطب جديد وهم أهل الكتاب، اليهود أولا والنصارى ثانيا إضافة إلى بداية التحول نحو الدولة، انتقال الإسلام من الدعوة إلى الدولة، ما يترتب من وراء ذلك على سياقات تختلف باختلاف الطورين، التي كانت مؤثرة على تشكيل الخطاب القرآني لذلك كان ترتيب آيات القرآن حسب النزول، ومعرفة ترتيب الآيات حسب النزول، وصيرورتها التعاقبية له أثر كبير في إدراك ناسخ القرآن من منسوخه، وأيضا الهدف من الترتيب حسب النزول هو التعرّف على المسار التكويني للنص القرآني باعتماد مطابقته مع مسار الدعوة المحمدية[38].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خاتمة:

القرآن الكريم نص النصوص، لفهمه فهما دقيقا، ينبغي النظر إليه من زوايا مختلفة، وما المقام والسياق إلاّ زاوية من هذه الزوايا، لا تقل أهمية لفهم مقاصد الخطاب القرآني، شكلا ومضمونا، أي النظم بصورته الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية، من ناحيته الشكلية والسياق الثقافي والاجتماعي من ناحية المضمون، لأنّ القرآن الكريم نزل متفرقا بلغة ميّزت تلك الفترة، في وضع اجتماعي وعقائدي مختلف مع مرور الزمن بين مكة والمدينة واختلاف أطراف التفاعل والمشاركين ممّا يستدعي معرفة كل ما يحيط بالخطاب من قالب لغوي، وظروف مختلفة وتأثيرات متنوعة، حتى نصل إلى المقصد الحقيقي للخطاب ومعناه، وهذه الطريقة تنطبق على جميع النصوص الأخرى الأدبية منها والشعرية، فالسياق بمفهومه القديم والحديث يعتبر أمرا ضروريا وجزء هاما في معرفة مقاصد الخطاب أو النص، لأنّ هذا الأخير لا ينجز من العدم، وإنّما بفعل ظروف معيّنة محيطة بالمخاطب، تتأثر عليها سلبا وإيجابيا.

الهوامش:

1 - نصر حامد أبو زيد، النص، السلطة، الحقيقة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1997م، ص98.
2 - تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1998م، ص337.
3 - عبد المنعم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، دراسة لغوية نحوية دلالية، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2007م، ص80.
4 - محمد بدري عبد الجليل، تصور المقام في البلاغة العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دط، 2003م، ص36.
5 - فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب التداولي، تر: عبد القادر قنيني، افريقيا الشرق، المغرب، دط، 2000م، ص257.
6 - تمام حسان، الأصول، دراسة ابستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 1982م، ص339.
7 - جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب، القاهرة، د.ط، 2000م، ص27.
8 - أبوهلال العسكري، الصناعتين، تح: علي محمد البداوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1952م. ص33.
9 - الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر ومكتبة المثنى، بغداد، ط2، 1960م، ص137.
10 - المرجع نفسه، ص، 138، 139.
11 - المرجع نفسه، ص144.
12- أبوهلال العسكري، الصناعتين، ص27.
13 - المرجع نفسه، ص29.
14 - السكاكي أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلو، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ص256.
15 - التهاوني محمد علي، موسوعة اصطلاحات الفنون والعلوم، تح: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1996م، ص616.
16 - القزويني الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: عبد المنعم خفاجي، دار الجبل، بيروت، ط3.
17 - المرجع السابق نفسه، ص ن.
18 - الغزالي أبو حامد محمد، المستصفى من علم الأصول، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1، ص27.
19 - المرجع نفسه، ص87.
20 - أبوهلال العسكري، الصناعتين، ص230.
21 - تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص337.
22 - محمد العمري، في بلاغة الخطاب الاقناعي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1986م، ص18.
23 - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات كلية الآداب، منوبة، ط2، 1994م، ص302.
24 - الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1996م، ص58.
25 - برنت روبن، الاتصال والسلوك الانساني، تر: نخبة من أعضاء قسم الوسائل وتكنولوجيا التعليم بكلية التربية، جامعة الملك سعود، معهد الدراسات العامة، دط، 1991م، ص159.
26 - فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ص70.
27 - ألفة يوسف، تعدد المعنى في القرآن، دار سحر للنشر، كلية الآداب، منوبة، تونس، ط1، 2003م، ص59.
28 - تمام حسان، الأصول، دراسة ابسميولوجية للفكر اللغوي عند العرب، ص339.
29 -كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، دار غريب، القاهرة، مصر، ط3، 1997م، ص96.
30 - محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1991م، ص52.

تاريخ التحكيم 15 ماي 2017
المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

31 - طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998م، ص103.
32 - عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون، المقدّمة، دار الجيل، بيروت، دط، دت. ص 603/1.
33 - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص189.
34 - محمود عكاشة، النظرية البرجماتية اللسانية (التداولية)، دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2013م، ص31.
35 - عياشي منذر، اللسانيات والدلالة، مركز الانماء الحضاري، حلب، ط1، 1996م، ص97.
36 - الشاطبي أبو اسحاق ابراهيم بم موسى، الموافقات في أصول الشريعة، تر: عبد الله درار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص43.
37 - المرجع نفسه، ص53.
38 - الجابري محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2007م، ص245.

تاريخ التحكيم 15 ماي 2017

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com